محنة المسلمين ..

بقلم : حلمي محمد القاعود

□□ لا شك أن قضية الصراع بيننا وبين « يهود » ، هي قضية الساعة ، أو هي قضية القضايا التي تأخذ طابع الاستمرار والديمومة حتى يأذن الله بالنهاية الفاصلة ، التي ينتصر فيها الحق ، وينهزم فيها الباطل ، ثم ترتفع راية التوحيد خفاقة وحرّة وشامخة على أرض الاسلام في فلسطين السليبة .

والصراع بيننا وبين « يهود » مرحلة من مراحل المواجهة الطويلة بين حضارة اسلامية تحتضن الانسان وترتقي به إلى آفاق رحبة وفسيحة تملؤها البهجة ويعزّزها اليقين ، وبين قوى شريرة تعمل على سحق الإنسان وتدمير البشرية بوسائل التسلط والارهاب والبغي .

لقد انتصر اسلامنا في مواقع كثيرة وعظيمة ورائعة ، يوم حمله مسلمون مخلصون ، عرفوا أن الحق غايتهم ، والدفاع عن الدين مصيرهم ، وإقامة الكيان الظافر رسالتهم .. لقد حقق هؤلاء المسلمون وجودهم بانتصاراتهم وجهادهم الذي لم ينقطع ..

ويمكن القول : إن الهزيمة التي حاقت بالمسلمين في بعض المراحل ، كانت بسبب تجاهلهم أو جهلهم برسالتهم ومصيرهم وغايتهم ، فصاروا نهباً للأغيار ، وحمى مستباحاً يرتع فيه الظالمون والأشقياء وأولاد الأفاعي .

بين اليأس والأمل ...

قد يذهب اليأس ببعض النفوس التي ترى فيما يجري نوعاً من المأساة الممتدة التي تشبه المآسي في الأساطير الاغريقية ، ولكن القلّة الواثقة المؤمنة الصامدة ، لا ترى فيه إلّا مرحلة من المراحل للابتلاء والاختبار ، ثم تكون العاقبة دائمًا للمتقين .

إن القلة المؤمنة ترجع إلى الميزان الدقيق الذي لا يميل ، فترى الحق ناصعاً ، وتستشعر موعدة الله عن يقين ، وتتلمس طريق النور ، رغم إرادة الضلال والقهر والطاغوت . **وأي ميزان دقيق يوجد في غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ؟**

لقد حاول بعضهم ، وما يزال ، أن ينصرف بجمهرة المسلمين في هذا الزمان والذي قبله إلى مفاهيم أخرى تبتعد عن الاسلام كثيراً أو قليلاً ، وتنطلق من قيم شعوبية أو عنصرية أو قومية ، معتقداً أنه يستطيع تحقيق الآمال التي يتشوق إليها الناس ، ويضحون من أجلها بالكثير من الصمت الذليل والمسير في القافلة المقهورة . وللأسف ، فإن كل النتائج كانت ضد هذا التصور غير الديني الذي خرج عن طاعة الله ، وارتضى قيماً وثنية قاصرة . ويكفي أن يشعر المسلم بالإحباط تجاه كل التجارب القريبة والبعيدة ، وأن يحس بالقهر الذي تخلف عن الهزائم العديدة على المستويات كلها ، داخلياً وخارجياً .

إفلاس المنهج اللاديني أو العلماني :

ولست أريد أن أستطرد في كلام يبدو مكروراً أو معاداً ، ولكن الذي أودّ الإشارة إليه باختصار ، أن كل المحاولات التي أرادت أن تثبت صدق المنهج اللاديني - يسميه بعضهم أحياناً « العلماني » - في معالجة قضايا الأمة ، قد باءت كلها بالفشل الذريع ، بينما الذي ثبت يقيناً هو صدق المنهج الاسلامي ورسوخه . . ولعل أوضح مثال وأقربه إلى الذهن الإسلامي في أيامنا الراهنة ، ما انتهى إليه أمر الصراع مع « يهود » .

لقد تصور بعضهم أن هؤلاء القوم - وفقاً لمنهجه اللاديني العلماني - يمكن أن يعيشوا في سلام مع غيرهم ، ويمكن أن يحملوا القيم الإنسانية العليا في تعاملهم مع الآخرين ، ويمكن - مع التفريط في بعض الحقوق - أن يتم استئناسهم ونزع عناصر الشر من

بين اليأس والأمل

● **هناك من يعميهم الإحباط عن رؤية سنة الله في خلقه المتمثلة في الابتلاء ومواجهة المحنة والارتكاز على قاعدة ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ ..**

سلوكهم .. لقد باء أصحاب هذا التصور بالخسران المبين . الذي تم فعلاً هو المزيد من سفك الدماء، وتشريد الآمنين من المسلمين في أرض لبنان ، وتدمير المدن والقرى ، واستخدام أبشع الوسائل والأساليب والأدوات في سحق شعبين مسلمين ، هما شعب فلسطين وشعب لبنان .

ولعل ما تناقلته وكالات الأنباء بالصوت والصورة عن إرغام الأسرى الفلسطينيين أمام قوات الغزو اليهودي في لبنان على تمريغ وجوههم في التراب ، يمثل قمة القهر والإذلال للأمة الاسلامية عامة ، ويؤكد أيضاً صدق ما ذهب إليه القرآن الكريم وديمومته إلى يوم الدين ، ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا ... ﴾ (المائدة : ٨٢) .

لقد تحدث القرآن الكريم عن « يهود » بصيغة المضارع المستمر للتدليل على كرههم للسلم والاستقرار والسير في ركب البشرية السويّة :

﴿ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (المائدة : ٦٤) .

لقد استطاعوا ـ وهم أعداء الله والمسلمين ـ أن يواصلوا مسيرة القهر والإذلال للمسلمين المعاصرين بعد احتلال مدينة القدس ـ أولى القبلتين وثالث الحرمين ـ بأن يحاصروا

● صلاح الدين ●

بجيوشهم ـ ولأول مرة ـ عاصمة عربية خارج فلسطين ، متحدين الدنيا كلها ، ومستهزئين بكل صوت يدعوهم إلى الرشد والصواب ، مما جعل عدداً من الأفراد في عالمنا العربي المسلم يموتون كمداً ـ أو بالسكتة القلبية كما يقول التعبير الشائع !

أسباب الهزائم والنكبات :

إن هذا القهر وذلك الإذلال نتيجة طبيعية للتصور اللاديني المدعوم بالجهل والأنانية والكسل ، فضلاً عن الممارسات اللاأخلاقية ضد بعضنا بعضاً ، حتى بات هناك من يعتقدون أن جلد شعوبهم وإرغام مواطنيهم على السير في القافلة الصامتة المقهورة أمر ضروري وحتمي (!) حتى تتاح الفرصة لقوى التقدم أن تعمل (!!..) .

لقد حاقت بنا الهزائم قبل أن تهزمنا « يهود » ، وذقنا القهر والإذلال قبل أن يذيقنا « يهود » ، وشربنا كأس المرارة قبل أن تسقينا « يهود » ، لسبب

محنة المسلمين .. بين اليأس والأمل

واحد ومعروف ، هو الخروج عن طاعة الله ، وطرح التصور الاسلامي الظافر جانباً ، بل محاربته في معظم الأحوال .

يوم استولت قوات الغزو اليهودي على قلعة « الشقيف » التي استردها « صلاح الدين » من الصليبيين ، وقف « مناحم بيجين » ليقول للرائد « سعد حداد » : هذه القلعة هدية لك ، لقد عادت إلى أصحابها ـ يقصد النصارى ـ بعد احتلال طويل !

إن « بيجين » يحمل في ثنايا تصوراته عن الصراع ، طبيعته الدينية والعقائدية ، ولم يخجل أن يعلن عن هذه التصورات ، بينما بعضهم في بلاد المسلمين ما يزال يخجل من كلمة الاسلام ، فضلاً عن إسقاط كل تصوّر ينتمي من قريب أو بعيد إلى الدين الحنيف .

ومهما يكن من أمر ، فإنني أرى أن طبيعة الصراع بيننا وبين « يهود » ، وغيرهم من قوى الشر في العالم ، مرهونة بنا قبل غيرنا .. فيهود ليسوا شجعاناً إلى ذلك الحد الذي لا يهزمون عنده أبداً ، وليسوا أسطورة يصعب تحطيمها وتبديدها .. فانتصاراتهم علينا ، وظفرهم بنا ، وإذلالهم لشعوبنا حتمية منطقية ـ إن صح التعبير ـ لما جرى عندنا وعندهم .

لقد ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا ﴿ إلاّ بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ ﴾ (آل عمران : ١١٢) ، وقد أتيح لهم هذا « الحبل » وذاك « الحبل » يوم تخلى المسلمون عن إسلامهم فعلاً واكتفوا به اسماً ، ويوم راح « اليهود » يملكون الإرادة والعقيدة ـ رغم فسادها ـ والقدرة على العمل في شتى المجالات .

إن ما وصل إليه واقع الصراع بيننا وبين « يهود » ، قد جعل من المسلمين « قصعة الأمم » ـ على حد تعبير بعض الشعراء ـ وجعل من يهود وحلفائهم سادة الموقف الآمرين الناهين دون أدنى اعتبار لقواعد الحق والصواب والإنسانية . وينبغي ألاّ يدفعنا هذا الواقع إلى حافة اليأس أو الموت كمداً .. فالمسلم الحقيقي ظافر أبداً ، ولا يعرف اليأس إليه سبيلاً مهما بلغت به الشدة وأضنته المحنة : ﴿ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إلاّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (يوسف : ٨٧) .

بذور الأمل ...

وإذا كان هناك بعض من يعميهم الإحباط عن رؤية سنة الله في خلقه المتمثلة في الابتلاء ومواجهة المحنة والارتكاز على قاعدة ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ ... ﴾ (الحج : ٧٨) ، فإن هناك قوماً آخرين يملكون بالفعل نور البصيرة وثبات اليقين وعزيمة المجاهدين ، ويضربون لنا المثل في الصبر والمثابرة ، ويزرعون في أيامنا بذور الأمل الإسلامي الظافر ...

إننا لو أرجعنا البصر عبر الشرق ، سوف نجد نماذج فذّة للبطولة الاسلامية النادرة ، تؤدي دورها على أرض الأفغان ، وتواجه الإلحاد والقهر والسحق ، بكل ما عرفته الإنسانية في عصرها الراهن من عظمة الأبطال وصلابة المجاهدين . ورغم استشهاد قرابة المليون أفغاني ، وضراوة الصراع غير المتكافىء مع دولة الإلحاد الشيوعي ، فإن الأمل الإسلامي المنتظر ، يتفجر مع هتافات المجاهدين باسم « الله الأكبر » ، وصيحة التوحيد التي تتردد عبر الجبال والوديان ..

إن المسلم يملك إمكانات هائلة ، وطاقات بغير حدود ، وحين يعقد العزم على العمل والحركة تلين له الصخور الصلدة ويذوب أمامه الحديد بإذن الله .. والذين يتصورون في عصرنا أن المسلم قد أصبح محكوماً بالهزيمة والهوان واهمون ومخطئون ويائسون .. فهناك موعدة وعدها الله عباده المسلمين ، وهي النصر والجنة إذا نصروه : ﴿ إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (محمد : ٧) ، وعلينا كمسلمين أن نؤدي فعل الشرط ، ولن يتخلف وعد الله في تحقيق الجواب .

ومهما يكن من شيء فإن المحنة التي تمر بها الأمة الإسلامية ـ على أرض العرب خاصة ـ ينبغي أن تدفعنا إلى الأمل ، وأن تكون إرهاصاً بالغد الجميل الذي نكون فيه حقاً وصدقاً خلفاء لله في أرضه بالإيمان والعلم والعمل جميعاً ، ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللهِ ، يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ، وَعْدَ اللهِ لاَ يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم : ٤/٦) .